تمهيد

يقدم هذا الكتاب سيرة موجزة لتاريخ نظرة الغرب إلى العالم، من صيغتها الإغريقية القديمة إلى صيغتها فيما بعد الحداثة. وقد بقي هدفي متركزاً على توفير رواية متماسكة لقصة تطور العقل الغربي وإدراكه المتغير للواقع، في حدود مجلد واحد. ثمة تقدم حديث على جبهات عديدة -في الفلسفة، وعلم نفس الأعماق (التحليل النفسي)، والدراسات الدينية، وتاريخ العلوم- ومن ثم قام الكتاب بتسليط أضواء جديدة على هذا التقدم الملحوظ. والمادة التاريخية المقدمة هنا شديدة التأثر وعظيمة الغنى بأشكال هذا التقدم، وفي نهاية السرد استندت إلى هذه المادة؛ لطرح وجهة نظر جديدة لفهم التاريخ الفكري والروحي لثقافتنا.

هذه الأيام نسمع الكثير عن انهيار التراث الغربي، من حيث انحطاط التعليم الليبرالي، ومن ثم فالغياب الخطر لأي أساس ثقافي مؤهل لمصارعة المشكلات الحديثة. صحيح أن مثل هذه الهواجس تعكس خوفاً وحنيناً إلى الماضي في مواجهة عالم دائب على التغير جذرياً من ناحية، ولكنها، تعكس أيضاً، من ناحية أخرى، حاجة حقيقية، وذلك العدد المتزايد من الرجال والنساء الذين يعترفون بمثل هذه الحاجة هم الذين يخاطبهم هذا الكتاب. كيف وصل العالم الحديث إلى وضعه الحالي؟ كيف نجح العقل الحديث في الوصول إلى جملة تلك الأفكار الأساسية والمبادئ العملية التي تمارس كل هذا التأثير العميق في عالم اليوم؟ هذان هما السؤالان الملحان اللذان يواجهان عصرنا، ومن أجل مقاربتهما لا بد لنا من إعادة طمس جذورنا، لا من منطلق الاحترام اللانقدي لآراء العصور الغابرة وقيمها، بل من أجل اكتشاف الجذور التاريخية لحقبتنا واستيعابها، بالأحرى. فنحن لا نستطيع -في اعتقادي- أن نحلم باكتساب الفهم الذاتي الضروري للتعامل مع مأزقنا الراهنة ما لم نبادر إلى استحضار المنابع الأعمق لعالمنا ونظرتنا العالمية الحاليين. وهكذا يكون التاريخ الغربي الثقافي والفكري قادراً على أن يشكل نوعاً من المرحلة التعليمية الإعدادية فيما

يخص جملة التحديات التي تواجهنا جميعاً. لقد علقتُ أملاً على أن أكون قادراً – من خلال هذا الكتاب – على جعل جزءٍ أساسي من ذلك التاريخ أقرب منالاً بالنسبة إلى القارئ العادي.

غير أنني كنت أيضاً حريصاً ببساطة على سرد قصة آمنْتُ بجدوى سردها. فتاريخ الثقافة الغربية طالما بدا منطوياً على جملة آليات، وآفاق، وجماليات دراما ملحمية عظيمة: ثمة اليونان القديمة والكلاسيكية، وثمة الحقبة الهلينستية، وروما الأمبراطورية، وثمة الديانة اليهودية وانبثاق المسيحية، وثمة الكنيسة الكاثوليكية والعصور الوسطى، وثمة عصر النهضة، والإصلاح الديني، والثورة العلمية، والتنوير والرومنتيكية، قِدَماً حتى الوصول إلى زماننا الملزم الخاص. ظلت محاولة العقل الغربي المستدامة، والكاسحة والمهيبة، الرامية إلى إدراك طبيعة الواقع، متميزة بحشد من الصراعات الدرامية المثيرة والحلول المذهلة، من تاليس وفيثاغورث إلى أفلاطون وأرسطو، من كلمنت وبويثيوس إلى الإكويني وأوكم، من الخروج وبطليموس إلى كوبرنيك ونيوتن، من بيكون وديكارت إلى كانط وهيغل، ومن جميع هؤلاء إلى دارون، وآينشتاين، وفرويد، ومَنْ بعدهم. معركة الأفكار الطويلة تلك المعروفة باسم «المدرسة الغربية» ظلت دائبة على استثارة المغامرة التي نحمل محصلتها وعاقبتها في دواخلنا جميعاً. ثمة بطولة ملحمية أشعت من النضالات الشخصية لكل من سقراط، وبولس وأوغسطين، ولوثر وغاليليو، ومن ذلك النضال الثقافي الأوسع الذي خاضه هؤلاء وآخرون كثيرون من الأبطال الأقل بروزاً، كانت هي التي دفعت الغرب في مساره غير العادي. إننا بصدد تراجيديا بلغت الأوج، وهناك شيء ما وراء أكمة التراجيديا.

تقوم الرواية الآتية بتعقب مسيرة تطور وجهات النظر العالمية الكبرى لتيار الثقافة الغربية الرئيس، مركزة على المجال الحاسم للتفاعل بين الفلسفة، والدين، والعلم. قد يصح ما قالته فيرجينيا وولف عن الأعمال الأدبية العظيمة على وجهات النظر العالمية الكبرى أيضاً: «لا يكمن نجاح عيون الأدب، على ما يبدو، في خلوها من الأخطاء –فنحن نتحمل أفدح الأخطاء فيها جميعاً بالفعل– بل في قدرتها الهائلة

علـى إقناع عقل بات متمكناً تماماً من منظوره». وهـدفي في هذه الصفحات يتمثل في إنطـاق كل منظور تمكن منه العقل الغربي في مسار تطوره، وبالتعامل مع كل منها من منطلقاته الخاصة. لم أفترض أي أولوية خاصة لأي تصور محدد للواقع، بما في ذلك تصورنـا الحالي (الذي هو تعددي وفي حالة تغـير عميق). بل عزمت، بدلاً من ذلك، علـى مقاربة كل نظرة عالمية بالـروح التي يمكنني اعتمادهـا في مقاربة أي عمل فني استثنائـي نفسها، محاولاً أن أفهـم وأتذوق، وأن أختبر نتائجـه الإنسانية، وأن أمكن معناه من التكشف.

يبـدو العقل الغربي اليوم متعرضاً لنوع من التحـول الدوري، تحول ربما بضخامة تضاهي أي تحول آخر في تاريخ حضارتنا. أعتقد أن ليس باستطاعتنا المشاركة بذكاء في ذلـك التحـول، إلا بمدى ما نكـون مطلعين تاريخياً. لا بد لـكل عصر من أن يتذكر تاريخـه من جديـد. لا بد لكل جيل من أن يعاين ويقلّب مـرة أخرى، من موقعه المميز الخاصـ، جملة الأفكار التي شكلت فهمه للعالم. ومهمتنا نحن ليست إلا أن نقوم بهذا مـن منظور أواخر القـرن العشرين المشحون بقدرٍ غني من التعقيد والتركيب. آمل أن يسهم هذا الكتاب في ذلك المسعى.

R. Tarnas آر تي.